دراسة موضوعية لأبعاد الاستغفار وآثاره في القرآن الكريم

د/ نورة بن حسن
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة 1

الملخص:
إن الطبيعة البشرية التي تجمع بين الجانب العقلي والعاطفي، تجعل الإنسان يقع في الذنوب والمعاصي تارة والإصلاح والإفساد تارة أخرى. وطبيعة الحياة تحول دون ديمومة حضور الذهن والقلب مع الله إلى الانشغال بمختلف المصالح الدنيوية؛ فيُغَانُّ على قلبه. أضف إلى ذلك ما تعيشه الأمة من القحط وتأخر نزول الأمطار، ونزول الكوارث الطبيعية، وتسلط الأعداء، وانتشار العقم والأمراض، وظهور الفساد، كلها أدواء أرشد القرآن الكريم إلى علاجها بالاستغفار من أجل الفلاح في الدنيا والآخرة؛ وتحقيق الأمن والطمأنينة، والارتقاء في مدارج التقوى وتذوق حلاوة الإيمان، واستدرار الخيرات والرحمات، وتطهير الفرد والمجتمع من مختلف الآفات.

Summary:
Human nature is a mixture of mental and emotional sides. It's why humans fall into sins and act badly sometimes, and sometimes act into reforms and perversions. Our daily life prevents the permanent presence of God within human minds and hearts and the interest in earthly things. So that the heart becomes sick. In addition to that, the various natural disasters and problems as drought and the late of rain. Also the spread of diseases and infertility and appearance of corruption. The Qu'ran gives to us the cure for all these diseases and problems which is forgiveness. To prevent the individual and the society from any problem and reach true faith.

مقدمة:
الحمد لله الغفّار، وصلى الله على رسوله وعلى آله وصحبه الأطهار، وعلى من تبعهم من الأخيار بإحسان إلى يوم الدين، أمّا بعد:

فإنّ المسلم في تفاعل دائم مع الحياة بما فيها من انشغالات ومغريات، تتجاذبه الطاعات والمعاصي والتقصير أحيانا، والمصالح والغفلة والفتور أحيانا أخرى، يتقلب في أحوال شتى،ولا يكاد يسلم من الافتتان بالدنيا أحد، وإن كان ذلك على تفاوت حسب الدُّربة على القُرُبات.

هذا فضلا عن تداعي الأعداء على الأمة وتكالبهم ضدها، مما أدى إلى دمار بعض الدول العربية وخرابها، وتشرد شعوبها ومعاناتهم من الأمراض والفقر والمجاعات. ويشهد الكثير منها اليوم القحط والجفاف، واحتباس القطر وانقطاع الغيث،والقرآن يُذكِّر العباد بالشدائد؛ لعلَّهم يتضرَّعون ويستغفرون؛ فكيف نظر إذا إلى موضوع الاستغفار؟ وما هي أبعاده وآثاره؟

إنَّ الإجابة على هذا الإشكال المحوري تستدعي تجاوز النظرة التجزيئية في التفسير إلى استخدام المنهج الموضوعي التجميعي، الذي يُعنى بتتبع آيات الموضوع، ثم فهمها في إطار الواقع، بهدف تحديد النظرة القرآنية إزاء الموضوع، وهو ما يفرض بحثه بعنوان: "دراسة موضوعية لأبعاد الاستغفار وآثاره في القرآن الكريم".

وتكمن أهمية الموضوع في كون الاستغفار وسيلة لاستدراك النقص وجبر التقصير، وتوقي الشدائد ودفع العذاب، والتغيير والإصلاح الذي يبدأ من مصالحة النفس وتوثيق الصلة بالله. فإذا كانت الذنوب أدواء فإنّ الاستغفار دواء، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه، وهذه من أقوى أسباب معالجة الموضوع، الذي رغم أهميته لم يحظ -في حدود اطلاعي- بدراسة سابقة تحقق الهدف بناءً على هذا المنهج.

ويبقى انتخاب الآيات التي تعالج المحاور الرئيسة للموضوع، يشكل أهم الصعوبات أمام الدراسة؛ إذ لا يمكن الإحاطة بجميعها في مثل هذا المقال، مما يقتضي إفراد البحث برسالة علمية.

ولتحقيق هدف الموضوع قُسِّم البحث إلى مقدمة تنطوي على الإشكالية، وثلاثة مطالب مذيلة بخاتمة، تتضمن أهم النتائج والتوصيات، بحيث يتناول المطلب الأول تحديد تعريف للاستغفار، أما الثاني فيعالج الفرق بين الاستغفار والتوبة ثم بيان لأفضل أوقاته، في حين خصص الثالث لأبعاده في العاجل وآثاره في الآجل.

المطلب الأول: تعريفات

قبل الحديث عن موضوع الاستغفار وأبعاده الأساسية في القرآن الكريم يتعين تحديد استعماله اللغوي والاصطلاحي من خلال فرعين.

الفرع الأول: الاستغفار في اللغة

قال الراغب: "الغفر إلباس ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل اغفر ثوبك في الوعاء واصبغ ثوبك فإنّه أغفر للوسخ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب.... والاستغفار طلب ذلك بالمقال والفعال"[1].

والاستغفار مصدر: استغفر يستغفر وهو مأخوذ من مادة (غَ فَ رَ) التي تدل على السَّتْرِ والتغطية، والْغَفرُ والغُفْرَانُ بمعنى، يُقالُ: غفَرَ الله ذَنْبَهُ غَفْرًا وَمَغْفِرَةً وَغُفْرَانًا أَي: ستره، وصَفَحَ عنه. ومنه يُقَالُ: الصِّبْغُ أَغْفَرُ لِلْوَسَخِ أَيْ أَسْتَرُ وأحمل وأغطى. وتَغافَرَا دَعا كلُّ واحد منهما لصاحبه بالمَغْفِرة.والغَفُورُ والغَفَّارُ: من صفاتِ اللهِ تعالى[2].

وجاء في تاج العروس: غَفَرَ له إذا تَجَاوَزَ عنه في الظاهر ولم يَتَجاوز في الباطنِ نحو قوله تَعَالَى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ**﴾ (الجاثية: 14)، والغَفَّارُ والغافِرُ: من صفاتِ الله تَعَالَى، وهُمَا من أَبْنِيَةِ المُبَالَغَة ومعناهُما السّاتِرُ لذنوب عباده المتجاوز عن خَطاياهم وذنوبهم[3].

قال ابن عاشور: "والاستغفار: طلب الغَفْر أي الستر للذنوب، وهو مجاز في عدم المؤاخذة على الذنب"[4].

فالاستغفار في الاستعمال المعجمي، مصدر مأخوذ من مادة غفر التي تتمحور حول معنى السَّتْرِ والتغطية مع الصفح، وإن كان قد يستعمل في التجاوز الظاهري فقط، أي السَّتر مع العقوبة. والْغَفرُ والغُفْرَانُ بمعنًى واحد، ومن صفات الله تعالى الغَفُورُ والغَفَّارُ، والغَافِر وهي من صيغ المبالغة، ومعناها السّاتِرُ لِذُنوبِ عِبَادِه المُتَجَاوِزُ عنها.

الفرع الثاني: الاستغفار في الاصطلاح

لتحديد الاستخدام الاصطلاحي للاستغفار تم استقراء ما ورد عند بعض المفسرين والعلماء، ومن ذلك:

الاستغفار عند الطبري: ستر الذنوب والصَّفح بعدم ترتيب العقوبة عليها[5].

فالاستغفار- في نظره -يجمع بين السَّتر وعدم العقوبة، ولا ينفرد بأحد المعنيين دون الآخر.

وتابعه على ذلك ابن تيمية في تعريف المَغْفِرة، فقال: "هي وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب عليه، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه، أما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن، ومن عوقب على الذنب باطنا وظاهرا لم يغفر له"[6].

فابن تيمية والطبري يفرقان بين المغفرة والسَّتر؛ إذ المغفرة هي السَّتر مع انتفاء العقوبة. فالسَّتر: أخص من الغُفْران؛ إذ يجوز أن يستر ولا يغفر.

وينتقد ابن تيمية تفسير الغفر بمجرد السَّتر، كما ينتقد تسمية المغفرة والغَفَّار بناءً على معنى السَّتر فقط، وتفسير اسم الله الغَفَّار بأنَّه الستَّار، ويعده تقصيرا في معنى الغَفْر.فهؤلاء نظروا إلى الاستغفار من جهة الذنب ومآله.

أمّا الاستغفار عند أبي حيّان فيُراد به: "سؤال الله بعد التوبة الغفران"[7]. ووافقه في ذلك ابن عاشور حيث قال: "الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة"[8].

فالاستغفار باتفاق بينهما لا يكفي فيه طلب الصفح عن المؤاخذة بالذنب بل لابد من توفر شروط التوبة؛ من ندامة ونية إقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه. ولا اعتبار له إلا إذا واطأ القلب ذكر اللّسان.

ويُعلل ابن عاشور ذلك فيقول: "إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمرّ عليه أو عازم على معاودته، ولو طلب ذلك في تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب، فلذلك عدّ الاستغفار هنا رتبة من مراتب التَّقوى". ثم ينتقد القول بأنّ «استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار» لما فيه من مبالغة؛ إذ الاستغفار بالقول مأمور به في الدّين لأنَّه وسيلة لتذكّر الذنب والحيلة للإقلاع عنه[9].

وقد أثبت علماء النفس أن ما يقوله الإنسان ويكرره يترك أثراً في العقل الباطن، مما يؤدي إلى تغيير سلوك هذا الإنسان، وذلك حسب العبارات التي يرددها، والاستغفار بمثابة رسالة قوية يوجهها الإنسان لنفسه،تجعله يعترف بالذنب ويعزم على عدم العودة إليه.

وعرّف الجرجاني الاستغفار بأنّه: "استقلال الصالحات والإقبال عليها، واستكبار الفاسدات والإعراض عنها"[10]. وهذا التعريف أقرب إلى معنى التقوى منه إلى الاستغفار.

أمّا أبو البقاء فقال: "المغفرة وهي صيانة العبد عما استحقه من العقاب بالتجاوز عن ذنوبه"[11].

ومدار التعريف على العاقبة فقط، وهي عدم ترتيب العقوبة على الذنب، بغض النظر عن الستر.

ومما سبق من التعريفات أنّ الاستغفار شرعا لا يكفي فيه ستر الذنب فقط بل طلب التجاوز عنه أيضا، وعدم المؤاخذة به. ويشهد له قوله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**﴾ (البقرة: 175)

وقوله: ﴿**فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ**﴾ [البقرة: 284]، فهذه الآيات دليل على أنّ المغفرة تقتضي تجاوز الذنب وعدم التعذيب به، والتعذيب دليل على عدم المغفرة.

المطلب الثاني: الفرق بين الاستغفار والتوبة وأفضل أوقاته

بعد التعرف على معنى الاستغفار في الاستعمال المعجمي والاصطلاحي، ننتقل إلى تحديد الفرق بين الاستغفار والتوبة، ثم الحديث عن أفضل أوقاته عبر فرعين:

الفرع الأول: الفرق بين الاستغفار والتوبة

فرّق ابن كثير بين الاستغفار والتوبة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾ (هود: 3)، حيث يرى أنّ الاستغفار يتعلق بالذنوب السالفة، أمّا التوبة ففي المستأنف والمستقبل واشترط لها الاستمرار أي: الإقلاع وعدم العودة[12]. وقد نقل القرطبي عن بعض الصالحين: "الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين"[13].

ولا يخرج عن ذلك الفرق ما جاء في "الوسيط" حيث ذكر أنّ: "الاستغفار: طلب المغفرة من الله - تعالى- وعدم المؤاخذة على الخطايا. والتوبة: العزم على الإقلاع عن الذنب، مع الندم على ما حصل منه في الماضي"[14].

فيستنبط من هذا أنّ الاستغفار يتعلق بالماضي، بينما تتعلق التوبة بالمستقبل.

في حين لم يفرّق ابن عاشور بينهما، فهما عنده بمعنى واحد حيث قال: "الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة"[15].

وقد سبقه إلى ذلك الفراء حيث قال: "ثم" هنا [أي في ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾] بمعنى الواو؛ أي: وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار"[16].

قال أبو هلال العسكري: "الفرق بين الاستغفار والتوبة: أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء والتوبة أو غيرهما من الطاعة، والتوبة الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة، فلا يجوز الاستغفار مع الإصرار لأنه مسلبة لله ما ليس من حكمه ومشيئته"[17].

أمّا أبو البقاء فيرى أنّ الاستغفار طلب الغفران، ولا يتوقف الغفران عند إسقاط العقاب بل ويقتضي نيل الثواب، ولا يستحقه إلا المؤمن، ولا يستعمل إلا في الباري تعالى، ويختص بالآخرة فقط[18].

وهو ما أشار إليه القرآن في حال اقتران الاستغفار بعدم الإصرار: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ [آل عمران:135- 136]

وبناءً على ما سبق وتتبع جل ما ورد في القرآن عن الاستغفار والتوبة، فإنّه يمكن القول بأنّ الاستغفار والتوبة يتواردان؛ فإذا جاء الاستغفار في السياق مقرونا بالتوبة أريد به النّدم والاعتراف بالذنب، وطلب التجاوز عنه بعدم ترتيب العقوبة، ولا يتعلق هذا إلا بما سلف، أما التوبة فيراد بها العزم على الإقلاع عن الذنب، ولا تتعلق إلا بالمستقبل، أمّا إذا جاء الاستغفار منفردا أريد به التوبة. فهما كالإيمان والإسلام، فنقول إذا تواردا تحدا في المعنى وإذا افترقا اختلفا.

الفرع الثاني: أفضل أوقات الاستغفار

لا يختص الاستغفار بوقت محدد كبعض العبادات، وهذا من فضل الله تعالى على عباده، فهو منحة ربانية تسع الأوقات جميعا، وإن كان يُرَّغب فيه في بعض الأوقات، ويَشرُف لشرفها كوقت السحر؛ وذلك لأسرار بيَّنها أبو حامد الغزالي في قوله: "وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات"[19].

والاستغفار صفة للمتقين لقوله تعالى: ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران:17] وقال: ﴿**وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات:15-18] وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنَّهم الأحقاء بأن يُوصفوا بالاستغفار دون المصرّين، كأنَّهم المختصون به، لاستدامتهم له، وإطنابهم فيه[20].

ونُقل في الاستغفار المقصود في هذه الآية وجهان: أحدهما: الصلاة، والثاني: تأخير الاستغفار من الذنوب إلى وقت السحر[21]. والسحر السدس الأخير من الليل، وسمي سحراً لاشتباهه بين النور والظلمة[22].

فإن كان المراد الصلاة، فالاستغفار فيها أحسن، وإن كان المراد تأخير الاستغفار من الذنوب إلى وقت الأسحار، فيشهد له وعد يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾ [يوسف: 98] عند كثير من المفسرين فيما نقله عنهم ابن كثير[23].

قال أبو السعود: "قيل: أخّر الاستغفارَ إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتحرّى به وقت الإجابة، وقيل: أخّره إلى أن يستحِلَّ لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم، فإنَّ عفوَ المظلوم شرطُ المغفرة"[24].

وروى محارب بن دثار عن عمه: "أنّه كان يأتي المسجد في السحر فيمر بدار ابن مسعود فيسمعه: اللهم إنّك أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا السحر فاغفر لي. فسئل ابن مسعود عن ذلك، فقال: إنَّ يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي**﴾ [يوسف: 98]. وروى الجريري: "أن داود، عليه السلام، سأل جبريل: أي الليل أسمع ؟ فقال: لا أدري غير أنّ العرش يهتز في السحر". وقوله: "أسمع" يريد أنها أوقع للسمع، والمعنى: أنّها أولى بالدعاء وأرجى للاستجابة"[25].

وقد ثبت في صحيح البخاري أَنَّ رسول الله ﷺ قال: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"[26]. وهذا دليل صحيح على أفضلية ثلث الليل الآخر، وهو وقت السحر في إجابة الدعاء وإعطاء المسألة، واستجلاب المغفرة.

وفي رواية مسلم: "هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر"[27]. فذكر أنَّ "الاستغفار المندوب إليه المرجو بركة إجابته، هو قبل الفجر"[28].

فهذا وقت شريف مرغب فيه، خصّه الله تعالى بالتنزل فيه، وتفضّل على عباده بإجابة من دعا فيه، وإعطاء من سأله، والمغفرة لمن استغفره، إذ هو وقت خلوة وغفلة واستلذاذ بالنوم، ومفارقة الدعة واللذة صعب على العباد، فمن آثر التضرع إلى ربه في غفران ذنوبه في هذا الوقت الشاق، ضمنت له الإجابة. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله: "والصلاة بالليل والناس نيام"[29]. فلذلك نبّه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا، ليستشعر العبد الجدّ والإخلاص لربه فتقع الإجابة منه تعالى رفقًا من الله بخلقه[30].

وقد حث النبي ﷺ على الذكر في جوف الليل الآخر، وهو الوقت الذي يكون فيه المولى تعالى أقرب ما يكون إلى العبد، بقوله: "أَقْرَبُ ما يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخر، فإن اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعالى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ"[31].

وجوف اللَّيل الآخر يرُاد به: "جوف النصف الثاني، فابتداؤه يكون من الثلث الأخير، وهو وقت القيام للتهجد. قاله الطيبي، وقال القاري: ولا يبعد أن يكون ابتداؤه من أول النصف"[32].

ومن الأوقات والأماكن التي يفضل فيها الاستغفار أيضا وقت الإفاضة وعقبها بعرفة لقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة: 199]، فذلك الوقت والمكان من أزمان الإجابة والمغفرة والرحمة وأماكنها.

ويُعد الوقت الذي يعقب قضاء العبادات عموما من بين أفضل الأوقات للاستغفار لما رواه ثوبان رضي الله عنه قال: "كان النبي ﷺ إذا سلم يستغفر ثلاثا"[33].

وقد نبَّه أبو حامد الغزالي إلى ضرورة حرص المؤمن تحري بعض الأوقات التي يرغب فيها الدعاء، فقال: "أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة. ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل"[34]. لما يرجى في هذه الأوقات من بركة الإجابة والمغفرة والرحمة.

المطلب الثاني: آثار الاستغفار وأبعاده

إن استقراء النصوص القرآنية يدل على أن الاستغفار تترتب عنه عدة آثار ونتائج مطلوبة أو منافع متطلع إليها، يمكن حصرها في نوعين، تبعا لحصولها في الدنيا أو الآخرة، أمّا الدنيوية فمنها:

الفرع الأول: آثار الاستغفار العاجلة

تتعدد منافع الاستغفار الدنيوية وآثاره العاجلة التي تترتب عنه، وترتبط به ارتباطا قويا كما بيّن ذلك القرآن في عدة مواضع، ومن بينها:

أولا: المتاع الحسن

وَعَد الله عزّ وجل المستغفرين والتوابين بالمتاع الحسن في الحياة الدنيا في قوله: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ [هود: 3] وهذا ما يدل على أنّ المتاع الحسن في الحياة الدنيا، من آثار الاستغفار وثمار التوبة إلى الله عزّ وجل من الذنوب، حيث جعلت الآية المتاع الحسن من نتائج الاستغفار والتوبة، فارتبطا ارتباط السبب بالمسبب، ولكن ما المقصود بالمتاع الحسن؟

اختلف المفسرون في المراد به عبارة وإن اتحد المعنى، فقال أبو السعود: "يعيشكم عيشًا حسنا في خفض ودعة وأمن وسعة"[35]، وقال الشنقيطي: "سعة الرزق، ورغد العيش، والعافية في الدنيا"[36]. وفسره ابن عاشور بالحياة الطيبة في الدنيا[37]. وهو قول يجمعها، ويشهد له قوله تعالى: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل: 97]. وسمَّى منافع الدنيا بالمتاع لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها، ونبّه على كونها منقضية بربطها بغاية محددة وهي الأجل المسمى[38].

ثانيا: إرسال السماء مدرارا

إنّ من آثار الاستغفار ومنافع التوبة في الدنيا إرسال السماء مدرارا، والمراد بذلك كثرة الأمطار وتتابعها، قال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**﴾ [هود: 52]، وقال حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**﴾ [نوح:10-11]. قال القرطبي عن الآيتين: "دليل على أنّ الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار"[39].

والمقصود هنا الاستغفار من الشرك بالله، والمسارعة إلى الإيمان به، لاستدرار المطر بعد أن حبس عن قوم هود عليه السلام سنين. والملاحظ التعبير بلفظ الرب، ولعلّ ذلك يعود إلى ما تحمله هذه اللفظة دون غيرها من دلالة كبيرة على التذكير بنعم الله ومدى إحسانه، لأنّ كلمة الرب تنطوي على معنى التربية والتعهد بالرعاية، ومن هنا يقال: رب وربة البيت.

ونزول الأمطار وكثرتها نعمة عظيمة؛ إذ بذلك قوام حياة الإنسان والحيوان والنبات، وإمساك القَّطر يؤدي إلى القحط والجفاف وهلاك الأموال؛ من المواشي والأنعام والزروع، وذهاب الأولاد، وقد عبّر عن ذلك بقوله: ﴿**يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا**﴾، ويرسل مأخوذ من مادة"رسل" التي تدلُّ على الانبعاث والامتداد. يقال: جاءَ القومُ أَرْسالاً، أي: يتبَعُ بعضُهم بعضاً[40]. وقد عبر بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار، مما يدل على تعهد المولى تعالى للمستغفرين بإدرار السماء نعمة تدوم بدوامهم على الاستغفار.

والمدرار الكثير الدر، على وزن مفعال من أبنية المبالغة، وهو مأخوذ من الدَّر أي: نزول اللبن غزيرا من الضرع، ثم استعير للمطر الغزير المتتابع الذي يتلو بعضه بعضا، يقال: دَرَّت السماء بالمطر، وتدر دَرّاً ودُرُوراً، إذا كثر مطرها

وتتابع[41]. من غير إضرار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "مدرارا" يتبع بعضه بعضا"[42].

ويُستفاد من هذا التعبير، أن الله عز وجلّ يتعهد أهل الاستغفار بغيث غزير لا ينقطع، يتبع بعضه بعضا، كأنّه خيط من السماء حتى تخصب الأرض، ويروي المواشي ويسد جميع حاجات الناس إلى الماء. ويشهد له ما جاء في الأثر من أن العباس رضي الله عنه لما استسقى به عمر رضي الله عنه أرخت السماء مثل الحبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس[43].

وقد فقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ الاستغفار هو المفتاح الذي يستنزل به الغيث، فكان لا يزيد عليه في الاستسقاء، فعن الشَّعْبِيِّ قال: "أَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ في عَهْدِ عُمَرَ رضي اللَّهُ عَنْهُ فَصَعِدَ عُمَرُ الْمِنْبَرَ فَاسْتَسْقَى فَلَمْ يَزِدْ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ حَتَّى نَزَلَ فَقَالُوا لَهُ: مَا سَمِعْنَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَسْقَيْتَ فَقَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْغَيْثَ بِمَفَاتِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي بِهَا يُسْتَنْزَلُ الْمَطَرُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا**﴾ (نوح: 10-12)، ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**﴾ (هود: 52)، ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾ (هود: 3)"[44].

وقال الاوزاعي: "خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اللهم إنَّا سمعناك تقول: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ [التوبة: 91] وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا! فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا"[45].

وهذه الآثار كلها تدل على فقه السلف، وتأويلهم للآيات التي ترتب الاستسقاء على الاستغفار، وتُبيِّن أنّ إدرار الأمطار ثمرة من ثمار الاستغفار، وإشارة إلى أنّ الكفر والمعاصي من أسباب منع القطر؛ وفي ذلك تعليم للأجيال بعدهم سبل دفع الجدب والقحط، واستنزال الرحمة والغيث، والعمل بما جاء في القرآن وأتباعه.

ثالثا: الإمداد بالأموال والبنين

تُعد الأموال والأولاد، أكثر المحبوبات إلى النفوس البشرية، والإمداد بها من آثار الاستغفار وثماره العاجلة، التي تُبهج النّفوس وتشرح الصدور، كما يدل على ذلك وعد نوح عليه السلام لقومه فيما حكاه عنه القرآن قائلا: ﴿**وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**﴾ [نوح: 12] قال عطاء: "يكثر أموالكم وأولادكم"[46]. والأموال لفظ عام يتناول جميع أنواع المال ولا يقتصر على نوع دون آخر.

قال الزمخشري: "أمرهم بالاستغفار الذي هو التوبة عن الكفر والمعاصي، وقدّم إليهم الموعد بما هو أوقع في نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة، ترغيباً في الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين"[47].

ويؤيد نشأة الولد عن الاستغفار وكونه من آثاره، حكاية القرآن وعد هود -عليه السلام- لقومه: ﴿**وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ**﴾، فالولد مما فسرت به هذه القوة، حيث نُقل أنّ قوم عاد عقمت أرحام نسائهم كما سبقت الإشارة.

وقرن بين الأموال والبنين، دون إعادة فعل الإمداد على خلاف المعتاد في تعداد آثار الاستغفار، لأن المحبوبية لا تكتمل إلا باجتماعهما، بينما يؤدي فقدان أحدهما إلى تنغيص محبوبية الآخر. وتأخير البنين لحِكم قد يكون منها أنّ بقاء الأموال غالباً بهم[48].

وقد انتزع الحسن بن علي رضي الله عنه من الآيتين، أنّ كثرة الاستغفار، قد يجعله الله سبباً لكثرة الولد. وأجاب من سأله وأخبره أنّه ذو مال ولا يولد له بالاستغفار، فأكثر من ذلك فولد له عشر بنين[49].

وقد أرشد الحسن البصري إلى الاستغفار كل من جاء إليه شاكيا الجدب والفقر، وقلة النسل والجفاف، حيث روي عن الربيع بن صبيح: "أنّ رجلاً أتى الحسن وشكا إليه الجدب، فقال له: استغفر الله تعالى، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر، فقال له: استغفر الله تعالى وأتاه آخر، فقال: ادع الله سبحانه أن يرزقني ابناً، فقال له: استغفر الله تعالى، وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه، فقال له: استغفر الله تعالى، فقلنا: أتاك رجال يشكون ألواناً ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فقال: ما قلت من نفسي شيئاً إنما اعتبرت قول الله - عز وجل- حكاية عن نبيه نوح -عليه الصلاة والسلام- أنه قال لقومه: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ**﴾[نوح: 10]" [50].

ويستفاد من هذا أنّ العقم والفقر والجدب والجفاف كلها يمكن علاجها، بكثرة الاستغفار خصوصا والطاعات عموما، وتعهد الإنسان نفسه بالاستغفار، من شأنه أن يؤدي إلى استنزال الأرزاق وتكثير الخيرات.

رابعا: جعل الجنات والأنهار

رتبت الآية جعل الجنات والأنهار على الاستغفار، لقوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[نوح: 12] فهذا وعد بخير الدنيا. مما يدل على أن الاستغفار والتوبة والطاعة عموما من أعظم أسباب الخصب والغنى، وكثرة البساتين والأنهار الجارية لسقيها؛ إذ بها قوامها وقوام الانتفاع بها، وبها إنتاجها وإثمارها

بأنواع مختلفة من الثمار إلى جانب جمالها؛ و ذلك في الدنيا على رأي الجمهور خلافا للبقاعي، جريا على الملذات العاجلة المذكورة في الآية.

واختلف المفسرون في سبب إعادة فعل الجعل فأرجعه الألوسي إلى تغاير الجنات والأنهار، إذ الأول مما لفعلهم مدخل فيه بخلاف الثاني[51]. أما ابن عاشور فعزاه لغرض التوكيد اهتماماً بشأن الأنهار لأنّها قوام الجنات والمزارع والأنعام[52].

خامسا: الرحمة ومنع عذاب الاستئصال

إن من آثار كثرة الاستغفار الإبقاء على قيد الحياة، واستجلاب الرحمة بدفع العذاب العاجل المستأصل كما تشير إلى ذلك النصوص، منها حث النبي صالح عليه السلام لقومه على الاستغفار لما سلف منهم: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النمل: 46] أي: رجاء رحمة الله بهم وعدم تعذيبهم، فالرحمة هنا هي دفع العذاب. وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال: 33]، وذلك فضلا عن وجود النبيُّ عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، إذ من سنة الله تعالى إمهال الظالمين، وعدم استئصالهم بالعذاب مادام النّبي فيهم ومادامو يستغفرون، والمرادُ باستغفارهم "إما استغفارُ مَنْ بقِيَ منهم من المؤمنين أو قولُهم: اللهم اغفِرْ أو فرضُه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا"[53].

وقد قَرنت الآية الاستغفار ببقَاءِ الرَّسُولِ في دفع عذاب الاستئصال، مما يدل على أنّ كلاهما أمان للنّاس من العذاب، وقد قال الرسول ﷺ: "أنزل الله علي أمانَيْنِ لأمتي ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ إذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة"[54].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "إنّ الله جعل في هذه الأمة أمانين، لا يزالون معصومين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله تعالى إليه، وأمان بقي فيكم قوله: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ**﴾[55].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: "كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر"[56].

فالأمان الذي مضى، هو انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، والذي بقي هو الاستغفار، به يأمن النّاس من عقاب الله تعالى، فقرن هنا بين وجود النبي حيّا والاستغفار، فسوى بينهما في دفع العذاب.

وهذا كله يؤكد ما جاءت به الآية، وهو أنّ وجود النبي ﷺ بين أظهر الناس ولزوم الاستغفار، وسائل تدفع العذاب، وتمنع نزول العقاب الدنيوي، إلا أنّ الأمان الأول مؤقت زال بوفاة النبي ﷺ، ولم يبق إلا أمان واحد دائم وهو الاستغفار. قال ﷺ: "العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله عز وجل"[57].

فالنصوص صريحة، في أنّ الإكثار من الاستغفار واق من عذاب الاستئصال، الذي قطع دابر الأمم السابقة بأنواع من العذاب كالغرق والصيحة والظلمة والريح وغير ذلك، وهو ما حذر منه الأنبياء أقوامهم، داعين إيّاهم إلى دفعه بالاستغفار والتوبة، لقوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿**وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾ [هود: 89-90] وقوله حكاية عن هود عليه السلام: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**﴾ [هود:3] والمراد بالمتاع: الإبقاءُ، أي الحياة، والمعنى أنه لا يستأصلهم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلهم، ووصفه بالحسن لإفادة أنّها حياة طيبة[58].

وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا**﴾ [الكهف: 55] فالامتناع عن الاستغفار والغفلة عنه، قد يؤدي إلى الإهلاك فجأة، وهذه سنة الله في الغافلين لا تحابي أحدا. فبإمكان الناس إنقاذ أنفسهم بالاستغفار من الاستئصال الذي أباد كثيرا من الظالمين.

سادسا: زيادة القوة

ولا تقتصر منفعة الاستغفار في الحياة الدنيا على النعم السابقة فقط، بل تتجاوزها إلى زيادة القوة لقوله تعالى: ﴿**وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ**﴾ [هود: 52] واختلف المفسرون في القوة المقصودة في هذه الآية، أهي: المال، العِز، النّكاح، الولد بعد عقم الأرحام أم الشدّة في الأعضاء[59].

والظاهر أن المراد بالقوة كل ذلك، وهو ما أشار إليه ابن عاشور في قوله: "وكانوا أيضاً معجبين بقوة أمتهم وقالوا: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت: 15]؛ فلذلك جعل الله لهم جزاء على تركِ الشرك زيادةَ قوتهم؛ بكثرة العدد وصحة الأجسام وسعة الأرزاق، لأن كلّ ذلك قوة للأمة يجعلها في غنى عن الأمم الأخرى، وقادرة على حفظ استقلالها، ويجعل أمماً كثيرة تحتاج إليها"[60].

ولكن لماذا خصت الآية: ﴿**يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ**﴾ [هود: 52] من بين المنافع العاجلة للاشتغال بالاستغفار والتوبة نعمتي المطر والقوة فقط بالذكر ؟

هذا ما اختلف فيه المفسرون؛ فأرجع الرازي سبب ذلك إلى أنّ السعادة لا تتحقق إلا بأمرين، الأول: كثرة النعم، والثاني: حصول القوة على الانتفاع بها، لذلك أشارت الآية إلى مادة حصول النعم وهي الأمطار، وكمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعم[61].

بينما يرى بعض المفسرين[62] أنّ المطر والقوة تُعدان من مطالب قوم هود عليه السلام لافتخارهم بمزيتين: إحداهما: البساتين والزروع والعمارات، بدليل قوله: ﴿**إِرَمَ ذَاتِ العماد التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البلاد**﴾ [الفجر:7-8]، وثانيهما: القوة والبطش، ولذلك قالوا: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت: 15].

وإن كانت الآية نازلة في قوم هود إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخوص السبب، وهو ما يؤيد ما ذهب إليه الرازي.

الفرع الثاني: آثارالاستغفار الآجلة

من خلال الاسترشاد بالنصوص القرآنية يمكن استنباط بعض الآثار والفوائد الأخروية أو الآجلة للاستغفار منها:

أولا: إيتاء كلَّ ذِي فضلٍ فضله

فمن فوائد الاستغفار والتوبة إيتاء كلَّ ذِي فضلٍ فضله في الدار الآخرة لقوله تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ... وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾[هود: 4] والمعنى: "ويؤت الله فضله كلّ ذي فضل فيعمله"[63]. فجزاء العمل الصالح في الحياة الدنيا النعيم والخير في الآخرة، فالجزاء من جنس العمل، ولا يعلم مقدار ذلك إلا الله تعالى. ونظير هذا مع اختلاف في التقديم والتأخير وزيادة بيان[64] قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[النحل: 97].

ثانيا: البشارة بالمغفرة والخلود في الجنّة

إنّ الاستغفار مع عدم الإصرار يستجلب مغفرة الله تعالى والخلود في الجنة كما يبيّن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: 135- 136]

فالغفران صفة لله تعالى يتعهد بها المستغفرين الذين لا يصرون على خطاياهم وذنوبهم، وهو ما يؤكده قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**﴾ [نوح: 10] قال الرازي: "لم قال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً**﴾ ولم يقل: إنّه غفّار؟ قلنا المراد: إنه كان غفاراً في حق كل من استغفروه"[65]. أي أنّ الغفران صفة ثابتة لله تعالى وليست طارئة، ولذا فهي من دواعي المغفرة وإجابة المستغفر، فلا يرد المتوجه إليه خائبا وإن كثرت ذنوبه، وعبر بصيغة المبالغة لإفادة كمال غفرانه[66].

فجزاء الاستغفار وعدم الإصرار ثوابان، فلا يقتصر على ستر الذنب وعدم المؤاخذة عليه بل يتجاوزه إلى الخلود في جنّات ترويها وتجملها الأنهار.

ثالثا: رفع الدرجة في الجنة

يعد الاستغفار من وسائل الترقي في درجات الجنة، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات، فعن أَبِي هريرةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: "إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا ؟ فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ"[67]. وهذا ما يقتضي من الولد الاستغفار للوالدين.

فبعد موت الإنسان تنقطع أعماله وتطوى صحائفه، إلا من ترك شيئا مما ذكره النبي ﷺ في حديثه، من بينها ولدا صالحا يدعوا له سواء بالاستغفار أو الرحمة أو غيرها مما يدخل في الدعاء، فمن فضل الله أن جعل الولد الصالح امتدادا لعمل والديه، قال نوح عليه السلام: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ**﴾ [نوح:28] ﴿**وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ [الإسراء : 24].

ويُعد هذا من أقوى الدوافع التي تجعل المؤمن يسعى لتربية الأبناء تربية صالحة، تدفعهم إلى برّه ميتا فضلا عن كونه حيّا.

رابعا: جلب المحبة الإلهية

علاوة على كون الاستغفار وسيلة لرفع الدرجة في الجنّة، فإنّه يجلب المحبة الإلهية كما جاء في الحديث القدسي، قال الله تبارك: ﴿**إن أحب عبادي إلىَّ المتحابون في الدين يعمرون مساجدي ويستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا ذكرت خلقي بعذاب ذكرتهم فصرفت عذابي عن خلقي**﴾[68].

وجاء في رواية أخرى: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**إن أحب عبادي إلي الذين يتحابون في والذين يعمرون مساجدي والذين يستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت بخلقي عذابا ذكرتهم فصرفت عذابي عن خلقي**﴾[69].

فالاستغفار من بين العبادات التي تحبب العبد إلى الله تعالى وتقربه إليه، وتصرف العقوبة عنه وعن غيره.

خامسا: الفلاح في الدنيا والآخرة

وفي الحقيقة من أعم آثار الاستغفار وأشملها؛ الفلاح في الدنيا والآخرة ،كما جاء على لسان آدم وحواء عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْلَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: 23]، وقول نوح عليه السلام: ﴿**وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [هود: 47] ومجيء لفظ "خاسرين" في الآيتين مطلقا من القيود يدل على عمومه وشموله للدنيا والآخرة.

خاتمة:

في ضوء هذه الدراسة المقتضبة لموضوع "دراسة موضوعية لأبعاد الاستغفار وآثاره في القرآن الكريم"، المبنية على تفهم النصوص، أخلص إلى نتيجة أساسية هي: الاستغفار سبب الفلاح في الدنيا والآخرة،وتتفرع عنها جملة من النتائج منها:

- الاستغفار والتوبة يتواردان في المعنى، فإذا ذكرا على انفراد كانا متحدين في المعنى، وإذا اقترنا تغايرا.
- الاستغفار دواء الذنوب وأمان من العقاب بها، وواق من عذاب الاستئصال.
- الاستغفار بالقول وسيلة لتقويم اللسان وتذكّر الذنب والعمل على الإقلاع عنه.
- لزوم الاستغفار يورث التقوى.
- الاستغفار يفضي إلى زيادة الإيمان وتذوق حلاوته، واستشعار الرقابة الإلهية الدائمة.
- الاستغفار يجلب المحبةوالثناء الإلهي والخلود في الجنة.
- الاستغفار يزيل الهم والغم والحزن ويولد الشعور بالأمن والطمأنينة.
- الاستغفار وسيلة لعلاج العقم، واستنزال الرزق والبركة واستجلاب الغيث والرحمة.
- الاستغفار يرفع درجة آباء المستغفرين في الجنة.
- الاستغفار يثمر طهارة الفرد والمجتمع من الأفعال السّيّئة.

- من أفضل أوقات وأماكن الاستغفار ما كان في الأسحار وعقب العبادات أو في أثنائها.

وفي الختام أوصي بدراسة الموضوع دراسة موسعة شاملة للنصوص القرآنية والنبوية لتعطي نظرة أبين وأدق.

وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من المستغفرين الذين أثنى عليهم، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

الهوامش:

[1]- الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تقديم وائل عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ط.ت)،1/ 362.

[2]- محمد بن منظور، لسان العرب، ط:1، دار صادر، بيروت، لبنان، (د،ت)، 47/16؛ أحمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ط.ت)، مادة: "غفر"، 449/2.

[3]- محمد مرتضى الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: علي هلالي، مؤسسة الكويت، الكويت، ط:1، (1421هـ/2001م)، مادة: "غفر"، 25/5.

[4]- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط.)، (1984م)، 92/4.

[5]- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تح: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:1، (1420 هـ/2000 م)، 7/ 219.

[6]- تقي الدين بن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرّحمن بن قاسم وساعده ابنه محمد، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، السعودية، (د.ط)، (1425هـ/2004م)، 317/10.

[7]- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تح: عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، (1413هـ/1993م)، 46/3.

[8]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 92/4.

[9]- نفسه، 93/4.

[10]- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ط)، (1423هـ/2002م)، 36/1.

[11]- أبو البقاء الكفوي، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،مؤسسة الرسالة، بيروت،لبنان، ط:2،(1419هـ/1998م)، 666.

[12]- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي سلامة، دار طيبة، ط: 2، (1420هـ/ 1999م)، 303/4.

[13]- محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:1، (1427هـ/2006م)، 3/9.

[14]- محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مطبعة السعادة، (د.ط.ت)، 2221/1.
[15]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 92/4.
[16]- نسبه البغوي إلى الفراء ولم أعثر عليه [الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، دار طيبة، ط:4، (1417 ه/1997م)، 156/4].
[17]- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الإسلامي،قم، إيران، ط: 1، (1412هـ)،48/1، برقم (167).
[18]- أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص666.
[19]- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة "كرياطة فوترا"، سماراغ، ص 19.
[20]- جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل عبد الموجود، علي معوض، مكتبة العبيكان، السعودية، ط:1، (1418هـ/ 1998م)، 411/6.
[21]- علي بن حبيب الماوردي، النكت والعيون، تح: ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت)، 170/4.
[22]- نفسه.
[23]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 418.
[24]- أبو السعود محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 306/4.
[25]- علي بن بطال، شرح صحيح البخارى، تح: أبو تميم بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، ط: 2،(1423هـ/ 2003م)، 3/ 139.
[26]- أخرجه البخاري في صحيحه، تح: مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت ط: 3، (1407هـ/1987م)، كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، 384/1 برقم (1094) وفي كتاب الدعوات، باب الدعاء من نصف الليل، 2330/5 برقم (5962).
[27]- أخرجه مسلم في صحيحه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ط.ت)، في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه 521/1 برقم (758).
[28]- ابن بطال، شرح صحيح البخارى، أبواب تقصير الصلاة، كتاب الصلاة، 153/3.
[29]- أخرجه الترمذي في سننه، تح: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط.ت)، كتاب التفسير ، باب سورة ص، 366/5، برقم 3233.
[30]- ابن بطال، شرح صحيح البخارى، 89/10.
[31]- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب رقم (119)، برقم (3579)، 569/5، وقال: "حديث حسن صحيح غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ".
[32]- محمد بن عبد الرحيم المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية بيروت،ط: 1، (1410 هـ/ 1990م)، 29/1.

[33]- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، 414/1 برقم (591).
[34]- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين،304/1.
[35]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 184/4.
[36]- محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1417هـ/1996م)، 10/12.
[37] - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 317/11.
[38]- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر ط:1، (1401هـ /1981م)، 366/8.
[39]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 302/18.
[40]- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، طبعة: (1399هـ/ 1979م)، مادة: "رسل"، 392/2.
[41]- ابن منظور، لسان العرب، مادة "درر"، 249/7.
[42]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: سورة نوح، 1871/4 برقم (397).
[43]- أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، تح:عبد العزيز بن باز، ترقيم محمد عبد الباقي، دار الفكر،صورة للطبعة السلفية، (د.ت)، 497/2.
[44]- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، تح: محمد عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (د.ط)، (1414هـ/ 1994م)، كتاب صلاة الاستسقاء، باب ما يستحب من كثرة الاستغفار، 351/3- 352، برقم (6216)، وبرقم (6217).
[45]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 302/18.
[46]- البغوي، معالم التنزيل، 8/ 231.
[47]- الزمخشري، الكشاف، 7 / 146.
[48]- شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،(1415هـ/1994م)،21/ 315.
[49]- أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 192/5.
[50]- الألوسي، روح المعاني، 21/ 315
[51]- نفسه، 21/ 315.
[52]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 198/29.
[53]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 112/3.
[54]- أخرجه أحمد في مسنده،تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، (1416هـ/1996م)، (393/4) بسند حسن.
[55] -أخرجه بن أبي حاتم الرازي، تفسير القرآن العظيم، تح: أسعد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، (د.ط.ت)، 1692/5، برقم (9025).
[56]- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، تح: محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، (1410هـ)، 442/1، برقم (654).
[57]- أخرجه أحمد في مسنده،43/1.

[58]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 4/9. ابن عاشور، التحرير والتنوير،11/ 317.
[59]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 51/9.
[60]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 97/12.
[61]- الرازي، مفاتيح الغيب، 425/8.
[62]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 96/12؛ الألوسي، روح المعاني، 276/8.
[63]- ابن عاشور، نفسه، 318/11.
[64]- نفسه، 318/11.
[65]- الرازي، مفاتيح الغيب، 53/16.
[66]- برهان الدين البقاعى، نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، (2002 م - 1424 هـ)، 29/ 197.
[67]- أخرجه أحمد في مسنده، 509/2 برقم (10618)، قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن".
[68]- أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف، تح: حبيب الرحمن الأعظمي، (د.ط.ت)، 49/3، برقم (4740).
[69]- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، 500/6، برقم (9052).